مصطلح الشفاء في السياق القرآنـــــي

أ. أحمد علي محمد الكتبـــــي ـ طالب دكتوراه بجامعة الزاوية.

المقدمـــــــــــة:

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا إنه من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريم له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله وصفيه من خلقه وخليله بلغ الرسالة وأد الأمانة ونصح للأمة وكشف الله به الغمة فصلوات الله وسلامه عليه مادام اليل والنهار وما طلعت الشموس والأقمار وعلى آله وصحبه الأبـــرار الأخيار ومن تبعهم بإحسان إلى لقاء الواحد الغفار(**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا**).

أما بعد : فهذا بحث لدراسة لمصطلح قرآني وهو (الشفاء).

خطة البحث:

مقدمة خطة البحث ، وتناولت فيها ما يلي : تعريف المصطلح من حيث اللغة ترتيب الآيات التي ذكر فيها المصطلح من حيث النزول أي المكي و المدني. ذكر موضع المصطلح من حيث الإعراب ، قسمت الآيات التي ذكر فيها المصطلح لمطالب، فكانت ست مطالب ، وتناولت في كل مطلب المصطلح في الآية بثلاثة أمور: المعنى الإجمالي، وفي ظلال الآية، وفي لطائف الآية ، وذكر بعض الهدايات القرآنية في لفظ الشفاء ، وأهم المراجع كتاب جامع البيان في تفسير آي القرآن للإمام الطبري، وكتاب مفاتيح الغيب في التفسير للإمام الرازي، وكتاب ظلال القران لسيد قطب، وكتاب التحرير والتنوير لابن عاشور، أما كتب اللغة، مقاييس اللغة لابن فارس ، والمفردات للأصفهاني، ولسان العرب لابن منظور رحمة الله عليهم أجمعين.

المبحث الأول ـ الشفاء في اللغة

1ـ البحث عنه في كتب اللغـــة : عند اختيار المصطلح القرآني ننظر إلى الجذر الثلاثي لكلمة الشفاء وهي (شفا)، في كتب اللغة.

قال ابن فارس(1) : (شَفَّ) الشِّينُ وَالْفَاءُ أَصْلٌ وَاحِدٌ يَدُلُّ عَلَى رِقَّةٍ وَقِلَّةٍ، لَا يَشِذُّ مِنْهُ شَيْءٌ عَنْ هَذَا الْبَابِ. مِنْ ذَلِكَ الشَّفُّ: السِّتْرُ الرَّقِيقُ. يَقُولُونَ: سُمِّيَ بِذَلِكَ لِأَنَّهُ يُسْتَشَفُّ مَا وَرَاءَهُ.

وَمِنْ ذَلِكَ الشَّفُّ الزِّيَادَةُ: يُقَالُ لِهَذَا عَلَى هَذَا شِفٌّ، أَيْ فَضْلٌ ، وَيُقَالُ: أَشَفَفْتَ بَعْضَ وَلَدِكَ عَلَى بَعْضٍ، أَيْ فَضَّلْتَ. وَإِنَّمَا قِيلَ ذَلِكَ لِأَنَّ تِلْكَ الزِّيَادَةَ لَا تَكَادُ تَكْثُرُ، وَقَوْلُ مَنْ قَالَ: الشَّفُّ: النُّقْصَانُ أَيْضًا مُحْتَمَلٌ، كَأَنَّهُ يَنْقُصُ الشَّيْءَ حَتَّى يُصَيِّرَهُ شُفَافَةً. وَالشُّفُوفُ: نُحُولُ الْجِسْمِ، يُقَالُ شَفَّهُ الْمَرَضُ يَشُفُّهُ شَفًّا. وَالِاسْتِشْفَافُ فِي الشَّرَابِ: أَنْ يَسْتَقْصِيَ مَا فِي الْإِنَاءِ لَا يُسْئِرُ فِيهِ شَيْئًا، كَأَنَّ تِلْكَ الْبَقِيَّةَ شُفَافَةٌ، فَإِذَا شَرِبَهَا الْإِنْسَانُ قِيلَ اشْتَفَّهَا وَتَشَافَّهَا. وَفِي حَدِيثِ أُمِّ زَرْعٍ: « إِنْ أَكَلَ لَفَّ، وَإِنْ شَرِبَ اشْتَفَّ». وَكُلُّ شَيْءٍ اسْتَوْعَبَ شَيْئًا فَقَدِ اشْتَفَّهُ(2)

.

قال الأصفهانـــي (3): شَفَا البئر وغيرها: حرفه، ويضرب به المثل في القرب من الهلاك. قال تعالى: {**عَلى شَفا جُرُفٍ**}، {**وَكُنْتُمْ عَلى شَفا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ**}، وأَشْفَى فلان على الهلاك، أي: حصل على شفاه، ومنه استعير: ما بقي من كذا إلّا شَفاً، أي: قليل كشفا البئر. وتثنية شفا شَفَوَانِ، وجمعه أَشْفَاءٌ، والشِّفَاءُ من المرض: موافاة شفا السّلامة، وصار اسما للبرء. قال في صفة العسل: {**فِيهِ شِفاءٌ لِلنَّاسِ**}، وقال في صفة القرآن :{**هُدىً وَشِفاءٌ**}، و{**وَشِفاءٌ لِما فِي الصُّدُورِ** }، {وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ }.؛ولكن آية التوبة يقصد بها القتال لا القرآن الكريم، كما هو واضح من سياق الآية.

وقال ابن منظور(4): شفي: الشِّفَاء: دواءٌ معروفٌ، وَهُوَ مَا يُبرئُ مِنَ السَّقَم، والجمعُ أَشْفِيَةٌ، وأَشَافٍ جمعُ الْجمع، وَالْفِعْلُ شَفاه اللَّهُ مِنْ مَرَضِهِ شِفاءً، ممدودٌ. واسْتَشْفَى فلانٌ: طلبَ الشِّفاء. وأَشْفَيْتُ فُلَانًا إِذَا وهَبتَ لَهُ شِفاءً مِنَ الدَّوَاءِ. وَيُقَالُ: شِفَاءُ العِيِّ السؤَالُ. أَبو عَمْرٍو: أَشْفَى زَيْدٌ عَمْرًا إِذَا وَصَفَ لَهُ دَوَاءً يَكُونُ شِفاؤه فِيهِ، وأَشْفَى إِذَا أَعْطى شَيْئًا مَا؛ وأَنشد:

وَلَا تُشْفِي أَباها، لوْ أَتاها فَقِيرًا فِي مبَاءَتِها صِماما

وأَشْفَيْتُك الشيءَ أَي أَعطيْتُكَه تَستَشْفي بِهِ. وشَفَاه بِلِسَانِهِ: أَبْرأَهُ. وشَفَاهُ وأَشْفَاهُ: طَلَبَ لَهُ الشِّفاءَ. وأَشْفِنِي عَسَلًا: اجْعَلْه لِي شِفاءً. وَيُقَالُ: أَشْفَاهُ اللهُ عسلًا إِذَا جَعَلَهُ لَهُ شِفاءً؛ حَكَاهُ أَبو عُبَيْدَةَ.

والشَّفَى : حرْفُ الشيءِ وحَدُّه، قَالَ اللَّهُ - تَعَالَى- : (**عَلى شَفا جُرُفٍ هارٍ**)؛ وَالِاثْنَانِ شَفَوان. قَالَ الأَخفش: لمَّا لَمْ تَجُزْ فِيهِ الإِمالةُ عُرِفَ أَنه مِنَ الْوَاوِ لأَنَّ الإِمالة مِنَ الْيَاءِ. وَالْجَمْعُ أَشْفَاءٌ؛ قال ابْنُ السِّكِّيتِ: الشَّفَى مقصورٌ بقيَّةُ الهلالِ وبقيةُ الْبَصَرِ وَبَقِيَّةُ النَّهَارِ وَمَا أَشبهه؛ وقَالَ: يُقَالُ لِلرَّجُلِ عِنْدَ موتهِ وَلِلْقَمَرِ عِنْدَ امّحاقِه وَلِلشَّمْسِ عِنْدَ غُرُوبِهَا مَا

بَقِيَ مِنْهُ إِلَّا شَفىً أَي قليلٌ. وَفِي الْحَدِيثِ عَنْ عَطَاءٍ قَالَ: سَمِعْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ يَقُولُ مَا كَانَتِ الْمُتْعة إِلَّا رَحْمةً رَحِمَ اللهُ بِهَا أُمَّة محمدٍ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَلَوْلَا نَهْيُه عَنْهَا مَا احْتَاجَ إِلَى الزِّنا أَحَدٌ إِلَّا شَفىً أَي إِلَّا قليلٌ مِنَ النَّاسِ؛ قَالَ: وَاللَّهِ لكَأَنِّي أَسمعُ قَوْلَهُ إِلَّا شَفىً؛ عَطَاءٌ القائلُ؛ قَالَ أَبو مَنْصُورٍ: وَهَذَا الْحَدِيثُ يدلُّ عَلَى أَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ عَلِمَ أَنَّ النبيَّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، نَهَى عَنِ الْمُتْعة فَرَجَعَ إِلَى تَحْرِيمِها بعد ما كَانَ بَاحَ بإِحْلالِها، وَقَوْلُهُ: إِلَّا شَفىً أَي إِلَّا خَطِيئَةً مِنَ النَّاسِ قَلِيلَةً لَا يَجدونَ شَيْئًا يَسْتَحِلُّون بِهِ الفُروج، مِنْ قَوْلِهِمْ غابتِ الشمسُ إِلَّا شَفىً أَي قَلِيلًا مِنْ ضَوْئِها عِنْدَ غُرُوبِهَا، وَمنها مَا بقِيَ مِنَ الشَّمْسِ والقَمَرِ إِلَّا شَفىً أَي قليلٌ. قَالَ: وَسَمِعْتُ بَعْضَ الْعَرَبِ يَقُولُ أَخْبَرَني فلانٌ خَبَراً اشْتَفَيْتُ بِهِ أَي انتَفَعْتُ بصحَّته وصدْقِه. وَيَقُولُ القائلُ مِنْهُمْ: تشَفَّيْتُ مِنْ فلانٍ إِذَا أَنْكَى فِي عَدُوِّه نِكايةً تَسُرُّه(5) .

الخلاصة في معنى الشفاء الذي جذره الثلاثي (شفا) أربع معان وهي ما يلي:

الأول : حرف الشيء وحده ، الثاني: طلب البرء ، والثالث: القليل ، والرابع: قرب الشيء.

2- مواضعها الإعرابيـــــة : من كتابي الجدول(6)، وإعراب القرآن وبيانه(7).

الآية الأولـــى : قال – تعالى -: **(قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ)** [التوبة:14] فعل مضارع مجزوم بحذف حرف العلة لوقوعه في جواب الشرط، حيث يخبر سبحانه أن مما يشف صدور المؤمنين قتال المشركين، وهي من معنى قولُ القائلُ مِنْهُمْ: تشَفَّيْتُ مِنْ فلانٍ إِذَا أَنْكَى فِي عَدُوِّه نِكايةً تَسُرُّه.

الآية الثانيـــــة : قال- تعالى- : **(يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ)** [يونس:57] ، (وشفاءٌ) الواو استئنافية. شفاء: خبر المبتدأ محذوف تقديره هو. أي : وهو شفاء. بمعنى : جاءكم كتاب من ربكم فيه موعظة لكم وهو شفاء .

الآية الثالثـــة: قال - تعالى- : **(ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)** [النحل:69] (فيه شفاء) مبتدأ مؤخر مرفوع ، ونكر لاحتمال تعظيم الشفاء الذي هو فيه، أو لأن فيه بعض الشفاء

الآية الرابعة : قال - تعالى - : **(وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا)** [الإسراء:82].(شفاء) خبر هو مرفوع بالضمة

الآية الخامســـة: قال - تعالى- : **(وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ)** [الشعراء:80]، فعل مضارع مرفوع بضمة مقدرة على الياء للثقل، وفاعل ضمير مستتر فيه جوازا تقديره

هو، والنون للوقاية لا محل لها، والياء المتكلم المحذوفة اكتفاء بالكسرة الدالة عليها ضمير متصل في محل مفعول به. وجملة (يشفين) في محل رفع خبر (هو)

الآية السادســـة: قال – تعالى- : **(قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ)** [فصلت:44]، وشفاء معطوف على (هـــدى) مرفوعة بالضمة الظاهرة. بمعنى : أن القرآن إرشاد إلى الحق وشفاء لما في الصدور من الظن والشك

3- ترتيب السور التي ذكر فيها لفظ الشفاء حسب نزولها : قد ورد ذكر الشفاء في القرآن الكريم في ست مواضع مختلفة، خمسة مرات في السور المكية، ومرة في سورة مدنية، وسوف نذكر هذه السور مرتبتا حسب نزولها، كما ذكرها ابن عاشور(8) في تفسيره التحرير والتنوير. في مقدمة كل سورة متى نزلت. الأولى سورة الشعراء: مكية وهي السورة السابعة والأربعون في عداد نزول السور نزلت بعد سورة الواقعة وقبل سورة النمل(9) ، الثانية سورة الإسراء : مكية، نزلت هذه السورة بعد سورة القصص وقبل سورة يونس. وعدت السورة الخمسين في تعداد نزول سورة القرآن(10) ، والثالثة سورة يونس عليه السلام: مكية، وهي السورة الحادية والخمسون في ترتيب نزول السور. نزلت بعد سورة بني إسرائيل وقبل سورة هود(11) ، والرابعة سورة فصلت: وهي مكية بالاتفاق نزلت بعد سورة غافر وقبل سورة الزخرف، وعدت الحادية والستين في ترتيب نزول السور(12) ، والخامسة سورة النحل: مكية، وهذه السورة نزلت بعد سورة الأنبياء وقبل سورة الم السجدة. وقد عدت الثانية والسبعين في ترتيب نزول السور(13) ، والسادسة سورة التوبة: مدنية، وهذه السورة آخر السور نزولا عند الجميع، نزلت بعد سورة الفتح، في قول جابر بن زيد، فهي السورة الرابعة عشرة بعد المائة في عداد نزول سور القرآن(14)

المبحث الثاني ـ مصطلح الشفاء في السياق القرآنـــي:

1- أدب رفيـــــع في ذكر الشفاء : المعنـــى الإجمالي : قال الطبري(15) القول في تأويل قوله - تعالى- : **(الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ)**، يقول: فإنهم عدوّ لي إلا ربّ العالمين **(الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ)** للصواب من القول والعمل، ويسددني للرشاد. **(وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ)** يقول : والذي يغذيني بالطعام والشراب، ويرزقني الأرزاق **(وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ)** ، يقول: وإذا سقم جسمي واعتل، فهو يبرئه ويعافيه. والذي يميتني إذا شاء ثم يحييني إذا أراد بعد مماتي. **(وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ)** ، فربي هذا الذي بيده نفعي

وضرّي ، وله القدرة والسلطان، وله الدنيا والآخرة، لا الذي لا يسمع إذا دعي ، ولا ينفع ولا يضرّ؛ وإنما كان هذا الكلام من إبراهيم احتجاجا على قومه، في أنه لا تصلح الألوهة، ولا ينبغي أن تكون العبودة إلا لمن يفعل هذه الأفعال، لا لمن لا يطيق نفعا ولا ضرّا(16) .

وظهر لي : أن من روائع هذا الثناء لرب العالمين أن الشفاء من المرض توسطها ، بعد أن نسب المرض لنفسه - عليه السلام - تأدبا مع خالقه ومولاه رب العالمين.

فـــي ظلال الآيـــــة : يقول سيد (17): ونستشعر من صفة إبراهيم لربه، واسترساله في تصوير صلته به، أنه يعيش بكيانه كله مع ربه. وأنه يتطلع إليه في ثقة، ويتوجه إليه في حب وأنه يصفه كأنه يراه، ويحس وقع إنعامه وإفضاله عليه بقلبه ومشاعره وجوارحه.. والنغمة الرخية في حكاية قوله في القرآن تساعد على إشاعة هذا الجو وإلقاء هذا الظل، بالإيقاع العذب الرخي اللين المديد « **الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ** ».. الذي أنشأني من حيث يعلم ولا أعلم فهو أعلم بماهيتي وتكويني، ووظائفي ومشاعري، وحالي ومآلي: « **فَهُوَ يَهْدِينِ** » إليه، وإلى طريقي الذي أسلكه، وإلى نهجي الذي أسير عليه، وكأنما يحس إبراهيم- عليه السّلام- أنه عجينة طيعة في يد الصانع المبدع، يصوغها كيف شاء، على أي صورة أراد. إنه الاستسلام المطلق في طمأنينة وراحة وثقة ويقين «وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ. وَإِذا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ».. فهي الكفالة المباشرة الحانية الراعية، الرفيقة الودود، يحس بها إبراهيم في الصحة والمرض. ويتأدب بأدب النبوة الرفيع، فلا ينسب مرضه إلى ربه- وهو يعلم أنه بمشيئة ربه يمرض ويصح- إنما يذكر ربه في مقام الإنعام والإفضال إذ يطعمه ويسقيه.. ويشفيه.. ولا يذكره في مقام الابتلاء حين يبتليه، « **وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ**».. فهو الإيمان بأن الله هو الذي يقضي الموت، وهو الإيمان بالبعث والنشور في استسلام ورضى عميق، « **وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ** ».. فأقصى ما يطمع فيه إبراهيم- عليه السّلام- النبي الرسول، الذي يعرف ربه هذه المعرفة، ويشعر بربه هذا الشعور، ويحس في قرارة نفسه هذه القربى.. أقصى ما يطمع فيه أن يغفر له ربه خطيئته يوم الدين. فهو لا يبرئ نفسه، وهو يخشى أن تكون له خطيئة، وهو لا يعتمد على عمله، ولا يرى أنه يستحق بعمله شيئا، إلا أنه يطمع في فضل ربه، ويرجو في رحمته، وهذا وحده هو الذي يطمعه في العفو والمغفرة، إنه شعور التقوى، وشعور الأدب ، وشعور التحرج وهو الشعور الصحيح بقيمة نعمة الله وهي عظيمة عظيمة ، وقيمة عمل العبد وهو ضئيل ضئيل، وهكذا يجمع إبراهيم في صفة ربه عناصر العقيدة الصحيحة: توحيد الله رب العالمين. والإقرار بتصريفه للبشر

في أدق شؤون حياتهم على الأرض. والبعث والحساب بعد الموت وفضل الله وتقصير العبد. وهي العناصر التي ينكرها قومه، وينكرها المشركون(18) .

مع لطائف الآية : قال الرازي(19) في قَوْلُهُ – تعالى- : { **وَإِذا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ**} وَفِيهِ سُؤَالٌ وَهُوَ أَنَّهُ لِمَ قَالَ: مَرِضْتُ دُونَ أَمْرَضَنِي؟ وَجَوَابُهُ مِنْ وُجُوهٍ: **الْأَوَّلُ:** أَنَّ كَثِيرًا مِنْ أَسْبَابِ الْمَرَضِ يَحْدُثُ بِتَفْرِيطٍ مِنَ الْإِنْسَانِ فِي مَطَاعِمِهِ وَمَشَارِبِهِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَمِنْ ثَمَّ قَالَتِ الْحُكَمَاءُ: لَوْ قِيلَ لِأَكْثَرِ الْمَوْتَى مَا سَبَبُ آجَالِكُمْ؟ لَقَالُوا التُّخَمُ ، و**الثَّانِي:** أَنَّ الْمَرَضَ إِنَّمَا يَحْدُثُ بِاسْتِيلَاءِ بَعْضِ الْأَخْلَاطِ عَلَى بَعْضٍ، وَذَلِكَ الِاسْتِيلَاءُ إِنَّمَا يَحْصُلُ بِسَبَبِ مَا بَيْنَهَا مِنَ التَّنَافُرِ الطَّبِيعِيِّ. أَمَّا الصِّحَّةُ فَهِيَ إِنَّمَا تَحْصُلُ عِنْدَ بَقَاءِ الْأَخْلَاطِ عَلَى اعْتِدَالِهَا، فَلِهَذَا السَّبَبِ أَضَافَ الشِّفَاءَ إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَمَا أَضَافَ الْمَرَضَ إِلَيْهِ، و**الثَّالِثُ:** وَهُوَ أَنَّ الشِّفَاءَ مَحْبُوبٌ وَهُوَ من أصول النعم، والمرض مكروه وليس من النِّعَمِ، وَكَانَ مَقْصُودُ إِبْرَاهِيمَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - تَعْدِيدَ النِّعَمِ، وَلَمَّا لَمْ يَكُنِ الْمَرَضُ مِنَ النِّعَمِ لَا جَـــرَمَ لَمْ يُضِفْهُ إِلَيْهِ – تَعَالَى - وَاعْلَمْ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ جَمَعَ فِي هَذِهِ الْأَلْفَاظِ جَمِيعَ نِعَمِ اللَّهِ - تَعَالَى - مِنْ أَوَّلِ الْخَلْقِ إِلَى آخِـــرِ الْأَبَدِ في الدار الآخـــرة(20) .

2- وصف أول للقـــرآن الكريم : المعنى الإجمالي : قال الطبري وقوله عزّوجلّ: **(وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ)** يقول تعالى ذكره: وننزل عليك يا محمد من القرآن ما هو شفاء يستشفى به من الجهل من الضلالة، ويبصر به من العمى للمؤمنين ورحمة لهم دون الكافرين به، لأن المؤمنين يعملون بما فيه من فرائض الله، ويحلون حلاله، ويحرّمون حرامه فيدخلهم بذلك الجنة، ويُنجيهم من عذابه، فهو لهم رحمة ونعمة من الله، أنعم بها عليهم، ولا يزيد هذا الذي ننزل عليك من القرآن الكافرين به إلا خسارا: يقول: إهلاكا، لأنهم كلما نزل فيه أمر من الله بشيء أو نهى عن شيء كفروا به، فلم يأتمروا لأمره، ولم ينتهوا عما نهاهم عنه، فزادهم ذلك خسارا إلى ما كانوا فيه قبل ذلك من الخسار، ورجسا إلى رجسهم قبلُ.

وعن قتادة قوله (**وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ**) إذا سمعه المؤمن انتفع به وحفظه ووعاه (وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ) به (إلا خَسَارًا) أنه لا ينتفع به ولا يحفظه ولا يعيه، وإن الله جعل هذا القرآن شفاء ورحمة للمؤمنين(21)

في ظلال الآية : قال سيد: وفي القرآن شفاء، وفي القرآن رحمة، لمن خالطت قلوبهم بشاشة الإيمان، فأشرقت وتفتحت لتلقي ما في القرآن من روح، وطمأنينة وأمان ، في القرآن شفاء من الوسوسة والقلق والحيرة. فهو يصل القلب بالله، فيسكن ويطمئن ويستشعر الحماية والأمن ويرضى فيستروح الرضى من الله والرضى عن الحياة والقلق

مرض، والحيرة نصب، والوسوسة داء. ومن ثم هو رحمة للمؤمنين ، وفي القرآن شفاء من الهوى والدنس والطمع والحسد ونزغات الشيطان.. وهي من آفات القلب تصيبه بالمرض والضعف والتعب، وتدفع به إلى التحطم والبلى والانهيار. ومن ثم هو رحمة للمؤمنين، وفي القرآن شفاء من العلل الاجتماعية التي تخلخل بناء الجماعات، وتذهب بسلامتها وأمنها وطمأنينتها. فتعيش الجماعة في ظل نظامه الاجتماعي وعدالته الشاملة في سلامة وأمن وطمأنينة. ومن ثم هو رحمة للمؤمنين ، «وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَساراً».. فهم لا ينتفعون بما فيه من شفاء ورحمة. وهم في غيظ وقهر من استعلاء المؤمنين به، وهم في عنادهم وكبريائهم يشتطون في الظلم والفساد، وهم في الدنيا مغلوبون من أهل هذا القرآن، فهم خاسرون. وفي الآخرة معذبون بكفرهم به ولجاجهم في الطغيان، فهم خاســـرون : **(وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَساراً)** ، فأما حين يترك الإنسان بلا شفاء ولا رحمة. حين يترك لنزعاته واندفاعاته فهو في حال النعمة متبطر معرض لا يشكر ولا يذكر، وهو في حال الشدة يائس من رحمة الله، تظلم في وجهه فجاج الحياة: « **وَإِذا أَنْعَمْنا عَلَى الْإِنْسانِ أَعْرَضَ وَنَأى بِجانِبِهِ، وَإِذا مَسَّهُ الشَّرُّ كانَ يَؤُساً** » ، والنعمة تطغى وتبطر ما لم يذكر الإنسان واهبها فيحمد ويشكر، والشدة تيئس وتقنط ما لم يتصل الإنسان بالله، فيرجو ويأمل، ويطمئن إلى رحمة الله وفضله، فيتفاءل ويستبشر، ومن هنا تتجلى قيمة الإيمان وما فيه من رحمة في السراء والضراء سواء(22) .

مع لطائف الآية : قال الرازي في قَوْلُهُ – تَعَالَى - : { **وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَساراً}** ولفظة (من) هاهنا لَيْسَتْ لِلتَّبْعِيضِ بَلْ هِيَ لِلْجِنْسِ كَقَوْلِهِ: { **فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثانِ}** [الْحَـــجِّ: 30] وَالْمَعْنَى وَنُنَزِّلُ مِنْ هَذَا الْجِنْسِ الَّذِي هُوَ قُرْآنٌ مَا هُوَ شِفَاءٌ. فَجَمِيعُ الْقُرْآنِ شِفَاءٌ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْقُرْآنَ شِفَاءٌ مِنَ الْأَمْرَاضِ الرُّوحَانِيَّةِ، وَشِفَاءٌ أَيْضًا مِنَ الْأَمْرَاضِ الْجُسْمَانِيَّةِ(23) .

3- **وصف ثاني للقرآن الكريم. المعنى الإجمالي :** قال الطبري: القول في تأويل قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ }. يعني: ذكرى تذكركم عقابَ الله وتخوّفكم وعيده، من عند ربكم، لم يختلقها محمد - صلى الله عليه وسلم - ، ولم يفتعلها أحد، فتقولوا: لا نأمن أن تكون لا صحةَ لها. وإنما يعني بذلك جلّ ثناؤه القرآن، وهو الموعظة من الله، ودواءٌ لما في الصدور من الجهل، يشفي به الله جهلَ الجهال، فيبرئ به داءهم، ويهدي به من خلقه من أراد هدايته به، وهو بيان لحلال الله وحرامه، ودليلٌ على طاعته ومعصيته، ويرحم بها من شاء من خلقه، فينقذه به من الضلالة إلى الهدى، وينجيه به من الهلاك والردى. وجعله

تبارك وتعالى رحمة للمؤمنين به دون الكافرين به، لأن من كفر به فهو عليه عمًى، وفي الآخرة جزاؤه على الكفر به الخلودُ في لظًى(24) .

في ظلال الآية : ويقول سيد: إن هذا القرآن شفاء لما في الصدور بكل معنى من معاني الشفاء. إنه يدب في القلوب فعلاً دبيب الشفاء في الجسم المعلول! يدب فيها بإيقاعه ذي السلطان الخفي العجيب. ويدب فيها بتوجيهاته التي توقظ أجهزة التلقي الفطرية، فتهتز وتتفتح وتتلقى وتستجيب. ويدب فيها بتنظيماته وتشريعاته التي تضمن أقل احتكاك ممكن بين المجموعات البشرية في الحياة اليومية. ويدب فيها بإيحاءاته المطمئنة التي تسكب الطمأنينة في القلوب إلى الله، وإلى العدل في الجزاء، وإلى غلبة الخير، وإلى حسن المصير(25) .

مع لطائف الآيـــة : يقول الرازي: اعْلَمْ أَنَّهُ - تَعَالَى - وَصَفَ الْقُرْآنَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ بِصِفَاتٍ أَرْبَعَةٍ: أَوَّلُهَا: كَوْنُهُ مَوْعِظَةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، وَثَانِيهَا: كَوْنُهُ شِفَاءً لِمَا فِي الصُّدُورِ، وَثَالِثُهَا : كَوْنُهُ هُـدًى ، وَرَابِعُهَا : كَوْنُهُ رَحْمَةً لِلْمُؤْمِنِينَ ، وَلَا بُدَّ لِكُلِّ وَاحِـدٍ مِنْ هَذِهِ الصِّفَاتِ مِنْ فَائِدَةٍ مَخْصُوصَةٍ، فَإِنَّ مَنْ وَقَعَ فِي الْمَرَضِ الشَّـدِيدِ ، فَإِنْ لَمْ يَتَّفِقْ لَهُ طَبِيبٌ حَاذِقٌ يُعَالِجُهُ بِالْعِلَاجَاتِ الصَّائِبَةِ مَاتَ لَا مَحَالَةَ، وَإِنِ اتَّفَقَ أَنْ صَادَفَهُ مِثْلُ هَذَا الطَّبِيبِ، وَكَانَ هَذَا الْبَدَنُ قَابِلًا لِلْعِلَاجَاتِ الصَّائِبَةِ فَرُبَّمَا حَصَلَتِ الصِّحَّةُ وَزَالَ السُّقْمُ(26) .

4ـ الوصف الثالث للقرآن الكريم ـ المعنى الإجمالـــي : قال الطبري : عن السـديّ **(قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ)** قال : القرآن. وقولـــه : **(وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى)** يقول تعالى ذكره: والذين لا يؤمنون بالله ورسوله، وما جاءهم به من عند الله في آذانهم ثقل عن استماع هذا القرآن، وصمم لا يستمعونه ؛ ولكنهم يعرضون عنه، (وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى) يقول: وهذا القرآن على قلوب هؤلاء المكذّبين به عمى عنه، فلا يبصرون حججه عليهم، وما فيه من مواعظه(27) .

في ظلال الآيـــة : يقول سيد : الحقيقة التي تخلص من وراء هذا الجدل حول الشكل، هي أن هذا الكتاب هدى للمؤمنين وشفاء، فقلوب المؤمنين هي التي تدرك طبيعته وحقيقته، فتهتدي به وتشتفي. فأما الذين لا يؤمنون فقلوبهم مطموسة لا تخالطها بشاشة هذا الكتاب، فهو وقر في آذانهم، وعمى في قلوبهم. وهم لا يتبينون شيئا. لأنهم بعيدون جدا عن طبيعة هذا الكتاب وهواتفه : **(قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدىً وَشِفاءٌ، وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذانِهِمْ وَقْرٌ، وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولئِكَ يُنادَوْنَ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ)**. ويجد الإنسان مصداق هذا القول في كل زمان وفي كل بيئة. فناس يفعل هذا القرآن في نفوسهم فينشئها إنشاء، ويحييها إحياء ويصنع بها ومنها العظائم في ذاتها وفيما حولها. وناس يثقل هذا

القرآن على آذانهم وعلى قلوبهم، ولا يزيدهم إلا صمما وعمى. وما تغير القرآن. ولكن تغيرت القلوب (28) .

مع لطائف الآية : قال الرازي ثُمَّ قَالَ – تَعَالَى- : {قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدىً وَشِفاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولئِكَ يُنادَوْنَ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ}. **واعْلَمْ أَنَّ هَذَا** مُتَعَلِّقٌ بِقَوْلِهِمْ { **وَقالُوا قُلُوبُنا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونا إِلَيْهِ}** إِلَى آخِرِ الْآيَةِ، كَأَنَّهُ تَعَالَى يَقُولُ: إِنَّ هَذَا الْكَلَامَ أَرْسَلْتُهُ إِلَيْكُمْ بِلُغَتِكُمْ لَا بِلُغَةٍ أَجْنَبِيَّةٍ عَنْكُمْ، فَلَا يُمْكِنُكُمْ أَنْ تَقُولُوا إِنَّ قُلُوبَنَا فِي أَكِنَّةٍ مِنْهُ بِسَبَبِ جَهْلِنَا بِهَذِهِ اللُّغَةِ، فَبَقِيَ أَنْ يُقَالَ إِنَّ كُلَّ مَنْ آتَاهُ اللَّهُ طَبْعًا مَائِلًا إِلَى الْحَقِّ، وَقَلْبًا مَائِلًا إِلَى الصِّدْقِ، وَهِمَّةً تَدْعُوهُ إِلَى بَذْلِ الْجُهْدِ فِي طَلَبِ الدِّينِ، فَإِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَكُونُ فِي حَقِّهِ هُدًى وَشِفَاءً. أَمَّا كَوْنُهُ هُدًى فَلِأَنَّهُ دَلِيلٌ عَلَى الْخَيْرَاتِ وَيُرْشِدُ إِلَى كُلِّ السَّعَادَاتِ، وَأَمَّا كَوْنُهُ شِفَاءً فَإِنَّهُ إِذَا أَمْكَنَهُ الِاهْتِدَاءُ فَقَدْ حَصَلَ الْهُدَى، فَذَلِكَ الْهُدَى شِفَاءٌ لَهُ مِنْ مَرَضِ الْكُفْرِ وَالْجَهْلِ، وَأَمَّا مَنْ كَانَ غَارِقًا فِي بحْرِ الْخِذْلَانِ، وَتَائِهًا فِي مَفَاوِزِ الْحِرْمَانِ، وَمَشْغُوفًا بِمُتَابَعَةِ الشَّيْطَانِ، كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ فِي آذَانِهِ وَقْرًا، كَمَا قَالَ عن المشركين: {**وَفِي آذانِنا وَقْرٌ** } ، وَكَانَ الْقُرْآنُ عَلَيْهِمْ عَمًى كَمَا قَالَ تعالى عنهم(29) .

5- وصف للعسل ـ المعنى الإجمالـــــي : قال الطبري: وقوله (**يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ)** يقول تعالى ذكره: يخرج من بطون النحل شراب، وهو العسل، مختلف ألوانه، لأن فيها أبيض وأحمر وأسحر، وغير ذلك من الألوان. قال أبو جعفر: أسحر: ألوان مختلفة مثل أبيض يضرب إلى الحمرة. وقوله (**فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ)** اختلف أهل التأويل فيما عادت عليه الهاء التي في قوله (فِيهِ)، فقال بعضهم: عادت على القرآن، وهو المراد بها، وقال آخرون: بل أريد بها العسل، وهذا القول الثاني، وهو قول قتادة، أولى بتأويل الآية، لأن قوله(**فِيـــــهِ)** ، في سياق الخبر عن العسل فأن تكون الهاء من ذكر العسل، إذ كانت في سياق الخبر عنه أولى من غيره، وعن قتادة، قال: جاء رجل إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم، فذكر أن أخاه اشتكى بطنه، فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم: اذْهَبْ فاسْقِ أخاكَ عَسَلا ثم جاءه فقال: ما زاده إلا شدة، فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم: اذْهَبْ فاسْقِ أخاكَ عَسَلا فَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ وكَذَبَ بَطْنُ أخِيكَ، فسقاه، فكأنما نُشِط من عِقال". حدثنا ابن وكيع، قال: ثنا أبي، عن سفيان، عن أبي إسحاق، عن أبي الأحوص، عن عبد الله، قال: شفاءان: العسل شفاء من كلّ داء، والقرآن شفاء لما في الصدور(30) .

في ظلال الآية : يقول سيد: والنحل تعمل بإلهام من الفطرة التي أودعها إياها الخالق، فهو لون من الوحي تعمل بمقتضاه. وهي تعمل بدقة عجيبة يعجز عن مثلها العقل المفكر

سواء في بناء خلاياها، أو في تقسيم العمل بينها، أو في طريقة إفرازها للعسل المصفى ، وهي تتخذ بيوتها- حسب فطرتها- في الجبال والشجر وما يعرشون أي ما يرفعون من الكروم وغيرها- وقد ذلل الله لها سبل الحياة بما أودع في فطرتها وفي طبيعة الكون حولها من توافق. والنص على أن العسل فيه شفاء للناس قد شرحه بعض المختصين في الطب. شرحاً فنياً. وهو ثابت بمجرد نص القرآن عليه. وهكذا يجب أن يعتقد المسلم استنادا إلى الحق الكلي الثابت في كتاب الله كما أثر عن رسول الله. في حديث الذي اشتكى أخاه بطنه ، ويروعنا في هذا الأثر يقين الرسول- صلى الله عليه وسلم- أمام ما بدا واقعاً عملياً من استطلاق بطن الرجل كلما سقاه أخوه. وقد انتهى هذا اليقين بتصديق الواقع له في النهاية. وهكذا يجب أن يكون يقين المسلم بكل قضية وبكل حقيقة وردت في كتاب الله. مهما بدا في ظاهر الأمر أن ما يسمى الواقع يخالفها. فهي أصدق من ذلك الواقع الظاهري، الذي ينثني في النهاية ليصدقها.. ونقف هنا أمام ظاهرة التناسق في عرض هذه النعم: إنزال الماء من السماء. وإخراج اللبن من بين فرث ودم. واستخراج السكر والرزق الحسن من ثمرات النخيل والأعناب. والعسل من بطون النحل.. إنها كلها أشربه تخرج من أجسام مخالفة لها في شكلها. ولما كان الجو جو أشربة فقد عرض من الأنعام لبنها وحده في هذا المجال تنسيقاً لمفردات المشهد كله. وسنرى في الدرس التالي أنه عرض من الأنعام جلودها وأصوافها وأوبارها لأن الجو هناك كان جو أكنان وبيوت وسرابيل فناسب أن يعرض من الأنعام جانبها الذي يتناسق مع مفردات المشهد.. وذلك أفق من آفاق التناسق الفني في القرآن(31) .

مع لطائف الآية : قال الرازي في قَوْلُهُ: فِيهِ شِفاءٌ لِلنَّاسِ وَفِيهِ قَوْلَانِ: الصَّحِيحُ أَنَّهُ صِفَةٌ لِلْعَسَلِ. فَإِنْ قَالُوا: كَيْفَ يَكُونُ شِفَاءً لِلنَّاسِ وهو يضر بالصفراء ويهيج المرار؟ قُلْنَا: إِنَّهُ تَعَالَى لَمْ يَقُلْ إِنَّهُ شِفَاءُ لِكُلِّ النَّاسِ وَلِكُلِّ دَاءٍ وَفِي كُلِّ حَالٍ، بل لما كان شفاء للبعض ومن بَعْضِ الْأَدْوَاءِ صَلُحَ بِأَنْ يُوصَفَ بِأَنَّهُ فِيهِ شِفَاءٌ، وَالَّذِي يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ شِفَاءٌ فِي الْجُمْلَةِ أَنَّهُ قَلَّ مَعْجُونٌ مِنَ الْمَعَاجِينِ إِلَّا وَتَمَامُهُ وَكَمَالُهُ إِنَّمَا يَحْصُلُ بِالْعَجْنِ بِالْعَسَلِ، وَأَيْضًا فَالْأَشْرِبَةُ الْمُتَّخَذَةُ مِنْهُ فِي الْأَمْرَاضِ الْبَلْغَمِيَّةِ عَظِيمَةُ النَّفْعِ.

رَوَى أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ: أَنَّهُ جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقال: إِنَّ أَخِي يَشْتَكِي بَطْنَهُ فَقَالَ: «اسْقِهِ عَسَلًا»...إلخ فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: مَا الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «صَدَقَ اللَّهُ وَكَذَبَ بَطْنُ أَخِيكَ»، قُلْنَا: لَعَلَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلِمَ بِنُورِ الْوَحْيِ أَنَّ ذَلِكَ الْعَسَلَ سَيَظْهَرُ نَفْعُهُ بَعْدَ ذَلِكَ، فَلَمَّا لَمْ يَظْهَرْ نَفْعُهُ فِي الْحَالِ مَعَ أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ عَالِمًا بِأَنَّهُ سَيَظْهَرُ نَفْعُهُ بَعْدَ ذَلِكَ، كَانَ هَذَا جَارِيًا مَجْرَى الْكَذِبِ، فَلِهَذَا السَّبَبِ أَطْلَقَ عَلَيْهِ هَذَا

اللَّفْظَ(32).

6- **الشفاء في مقاتل الكفار والمشركين - المعنى الاجمالي** - قال الطبري : يقول تعالى ذكره: أيها المؤمنون بالله ورسوله، هؤلاء المشركين الذين نكثوا أيمانهم، ونقضوا عهودهم بينكم وبينهم، وأخرجوا رسول الله صلى الله عليه وسلم من بين أظهرهم، يقتلهم الله بأيديكم، ويذلهم بالأسر والقهر، فيعطيكم الظفر عليهم والغلبة، ويبرئ داء صدور قوم مؤمنين بالله ورسوله، بقتل هؤلاء المشركين بأيديكم، وإذلالكم وقهركم إياهم. وذلك الداء، هو ما كان في قلوبهم عليهم من الموْجِدة بما كانوا ينالونهم به من الأذى والمكروه(33) .

في ظلال الآيـــة : ويقول سيد: قاتلوهم يجعلكم الله ستار قدرته، وأداة مشيئته، فيعذبهم بأيديكم ويخزهم بالهزيمة وهم يتخايلون بالقوة، وينصركم عليهم ويشف صدور جماعة من المؤمنين ممن آذاهم وشردهم المشركون. يشفها من غيظها المكظوم، بانتصار الحق كاملاً، وهزيمة الباطل، وتشريد المبطلين.. وليس هذا وحده ولكن خيراً آخر يُنتظر وثواباً آخر يُنال : « **وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلى مَنْ يَشاءُ**»، فانتصار المسلمين قد يرد بعض المشركين إلى الإيمان، ويفتح بصيرتهم على الهدى حين يرون المسلمين يُنصرون، ويحسون أن قوة غير قوة البشر تؤيدهم، ويرون آثار الإيمان في مواقفهم- وهذا ما كان فعلاً- وعندئذٍ ينال المسلمون المجاهدون أجر جهادهم، وأجر هداية الضالين بأيديهم وينال الإسلام قوة جديدة تضاف إلى قوته بهؤلاء المهتدين التائبين: « **وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** ». عليم بالعواقب المخبوءة وراء المقدمات. حكيم يقدر نتائج الأعمال والحركات(34)إن هذا القرآن شفاء لما في الصدور بكل معنى من معاني الشفاء

مع لطائف الآيـــة : قال الـــرازي: اعْلَمْ أَنَّهُ – تَعَالَى- لَمَّا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُولَـــى : { **أَلا تُقاتِلُونَ قَوْماً** } [التَّوْبَةِ: 13] ، ذَكَرَ عَقِيبَهُ سَبْعَةَ أَشْيَاءَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا يُوجِبُ إِقْدَامَهُمْ عَلَى الْقِتَالِ. ثُمَّ إِنَّهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَعَادَ الْأَمْرَ بِالْقِتَالِ وَذَكَرَ فِي ذَلِكَ الْقِتَالِ خَمْسَةَ أَنْوَاعٍ مِنَ الْفَوَائِدِ، كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا يَعْظُمُ مَوْقِعُهُ إِذَا انْفَرَدَ فَكَيْفَ بِهَا إِذَا اجْتَمَعَتْ؟ فَأَوَّلُهَا: قَوْلُهُ : {**يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ** } وَفِيهِ مَبَاحِثُ: الْبَحْثُ الْأَوَّلُ: أَنَّهُ تَعَالَى سَمَّى ذَلِكَ عَذَابًا وَهُوَ حَقٌّ فَإِنَّهُ تَعَالَى يُعَذِّبُ الْكَافِرِينَ فَإِنْ شَاءَ عَجَّلَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنْ شَاءَ أَخَّرَهُ إِلَى الْآخِرَةِ ، والْبَحْثُ الثَّانِي: أَنَّ الْمُرَادَ مِنْ هَذَا التَّعْذِيبِ الْقَتْلُ تَارَةً وَالْأَسْرُ أُخْرَى وَاغْتِنَامُ الْأَمْوَالِ ثَالِثًا، فَيَدْخُلُ فِيهِ كُلُّ مَا ذَكَرْنَاهُ ، وَثَانِيهَا: قَوْلُهُ - تَعَالَى- : {**وَيُخْزِهِـــمْ**} مَعْنَاهُ: مَا يَنْزِلُ بِهِمْ مِنَ الذُّلِّ وَالْهَوَانِ حَيْثُ شَاهَدُوا أَنْفُسَهُمْ مَقْهُورِينَ فِي أَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ ذَلِيلِينَ مَهِينِينَ ، وَثَالِثُهَا: قَوْلُهُ تَعَالَى: {وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ} وَالْمَعْنَى أَنَّهُ لَمَّا حَصَلَ الْخِزْيُ لَهُمْ بِسَبَبِ كَوْنِهِمْ

مَقْهُورِينَ فَقَدْ حَصَلَ النَّصْرُ لِلْمُسْلِمِينَ بِسَبَبِ كَوْنِهِمْ قَاهِرِينَ ، وَرَابِعُهَا: قَوْلُهُ : {**وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ**} وَقَدْ ذَكَرْنَا أَنَّ خُزَاعَةَ أَسْلَمُوا، فَأَعَانَتْ قُرَيْشٌ بَنِي بَكْرٍ عَلَيْهِمْ حَتَّى نَكَّلُوا بِهِمْ، فَشَفَى اللَّهُ صُدُورَهُمْ مِنْ بَنِي بَكْرٍ، وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ مَنْ طَالَ تَأَذِّيهِ مِنْ خَصْمِهِ، ثُمَّ مَكَّنَهُ اللَّهُ مِنْهُ عَلَى أَحْسَنِ الْوُجُوهِ فَإِنَّهُ يَعْظُمُ سُرُورُهُ بِهِ، وَيَصِيرُ ذَلِكَ سَبَبًا لِقُوَّةِ النَّفْسِ، وَثَبَاتِ الْعَزِيمَةِ ، وَخَامِسُهَا: قَوْلُهُ : {**وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ**}. وَلِقَائِلٍ أَنْ يَقُولَ: قَوْلُهُ: وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ مَعْنَاهُ أَنَّهُ يَشْفِي مِنْ أَلَمِ الْغَيْظِ وَهَذَا هُوَ عَيْنُ إِذْهَابِ الغيظ، فكان قوله: وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ تكرار.

وَالْجَوَابُ : أَنَّهُ تَعَالَى وَعَدَهُمْ بِحُصُولِ هَذَا الْفَتْحِ فَكَانُوا فِي زَحْمَةِ الِانْتِظَارِ، كَمَا قِيلَ الِانْتِظَارُ الْمَوْتُ الْأَحْمَرُ، فَشَفَى صُدُورَهُمْ مِنْ زَحْمَةِ الِانْتِظَارِ، وَعَلَى هَذَا الْوَجْهِ يَظْهَرُ الْفَرْقُ بَيْنَ قَوْلِهِ: وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ وَبَيْنَ قَوْلِهِ: وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ فَهَذِهِ هِيَ الْمَنَافِعُ الْخَمْسَةُ الَّتِي ذَكَرَهَا اللَّهُ تَعَالَى فِي هَذَا الْقِتَالِ، وَكُلُّهَا تَرْجِعُ إِلَى تَسْكِينِ الدَّوَاعِي النَّاشِئَةِ مِنَ الْقُوَّةِ الْغَضَبِيَّةِ، وَهِيَ التَّشَفِّي وَدَرْكُ الثَّأْرِ وَإِزَالَةُ الْغَيْظِ، وَلَمْ يَذْكُرْ تَعَالَى فِيهَا وِجْدَانَ الْأَمْوَالِ وَالْفَوْزَ بِالْمَطَاعِمِ وَالْمَشَارِبِ وَذَلِكَ لِأَنَّ الْعَرَبَ قَوْمٌ جُبِلُوا عَلَى الْحَمِيَّةِ وَالْأَنَفَةِ، فَرَغَّبَهُمْ فِي هَذِهِ الْمَعَانِي لكونها لائقة بطباعهم(35) .

الهدايات القرآنية في لفظ الشفاء

1- في مواضعها الإعرابية تبين أن كلها وردت مرفوعة إلا في موضع واحد، وهو الذي في سورة التوبة فكان مجزوما، وعلامة جزمه حذف حرف العلة ؛لأنه معتل الآخر. وهذه لفتة إلى أن القتال فيه حزم، أي يقين وشدة، وحذف العلة، وهي إشارة للعلة التي في رؤوس وقلوب الكفار التي يجب التخلص منها بالحذف.

2- ذكر لفظ الشفاء ست مرات في القرآن الكريم، خمسة منها في سور مكية، وواحدة في سورة مدنية، والعهد المكي كان يتناول قضايا من شأنها ترسيخ العقيدة ، والتربية الإسلامية الصحيحة، ولم يشرع فيه القتال بعد، بل كان دعوة وتربية ، وأما في العهد المدني فكان فيه إعلان الجهاد على الكافرين والمشركين، نصرة للمستضعفين، وتقوية لشوكة المسلمين، وذلك بقوله تعالى في سورة الحج: {أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ} فكان ذكر الشفاء في العهد المدني في سياق القتال للمشركين. التي في سورة التوبة قال تعالى: {قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ }.

3- عند النظر في ترتيب السور التي ورد فيها لفظ الشفاء حسب النزول، نجد أولها آية

الشعراء {**وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ** }.والتي فيها أدب رفيع من أبى الأنبياء إبراهيم عليه السلام، ثم كان في السور الثلاثة الآخر كان وصفا للقرآن الكريم، ففي سورة الإسراء {وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ }، وفي سورة يونس عليه السلام {يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ }، وفي سورة فصلت {قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آَمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ }، ثم جاء وصف العسل في سورة النحل {يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ } ثم ذكر بأنه صفة للمؤمنين في حال قتالهم للمشركين في سورة التوبة {**قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ**}. وكأن هناك إشارة إلى أخذ أمر الدعوة للقرآن بأدب رفيع، ثم بعدها الحث على فهم القرآن الكريم، فإذا حصل المقصود ذاقوا حلاوة الإيمان، وهو الموضع الذي ذكر فيه العسل، وإلا فالقتال الذي يشف الصدور ، وكما يقال الكي آخر الدواء.

4ـ عند النظر في ذكر لفظ الشفاء، في ترتيب المصحف نجد ما يلي :

أـ أن وصف القرآن الكريم جاء عقب كل سورة ذكر فيها الشفاء، ففي الموضع الأول في سورة يونس عليه السلام، جاء بعد آية التوبة التي ذكر فيها القتال، وكأنه يذكرهم بأن القرآن الكريم، شفاء لهم، وهداية، ورحمة إذا هم اتبعوه وعملوا بما فيه.

ب ـ في الموضع الثاني في سورة الإسراء، جاء بعد آية العسل التي في سورة النحل، وكأنه يذكرهم بأن القرآن الكريم، ليس كونه شفاء فقط ؛ بل هو رحمة أيضا للمؤمنين، وهو الشفاء الكامل، فإذا اجتمعا كان الأفضل كما في الحديث (**عَلَيْكُمْ بِالشِّفَائَيْنِ: الْعَسَلُ وَالْقُرْآنُ**)(36) .

جـ ـ في الموضع الثالث في سورة فصلت، جاء بعد آية التأدب مع رب العالمين، في سورة الشعراء، فكان آية فصلت هي الخلاصة والخاتمة والفاصلة بين من يتخذ القرآن منهجا ودستورا، وبين من يعرض عنه ويخالفه.

دـ ذكر سورة التوبة في الترتيب أولا، من حيث ترتيب المصحف، مع أنها آخر ما نزل في ذكر الشفاء، يثبت فرضية القتال والجهاد في سبيل الله عزوجل ، وهذه بعض اللمحات في هذه الآيات، في سورة الشعراء ذكر إبراهيم عليه السلام رب العالمين بخمس صفات، اثنان منها في الدنيا، واثنان منها في الآخرة، وقد توسطها صفة (**وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ**)، والذي نسب فيها المرض لنفسه علي السلام، وتوسطها دلالة أنه سبحانه يشفيه من هموم الدنيا والآخرة، ثم دعار به عزوجل.

هـ ـ في الآيات التي وصف فيه القرآن بأنه شفاء، كان فيها لف ونشر مرتب، ففي

سورة يونس عليه السلام ذكر بأنه موعظة، وشفاء، وهدى، ورحمة، وفي سورة الإسراء ذكر بأنه شفاء ورحمة ولم يذكر هدى، وفي سورة فصلت ذكر بأنه هدى وشفاء ولم يذكر رحمة. فسبحان الله ما أجمل كلامه وأحكمه.

و ـ في ذكر الشفاء في سورة النحل الذي هو وصف للعسل، بأنه فيه شفاء للناس أمران الأول: قال (فيه) وهي تدل على البعض ليس الكل، والثاني(الناس) ومعلوم أن العسل استعمله غير المسلمين فكان سببا في شفائهم –بعدالله عزوجل- وأما عند ذكره صفة للقرآن الكريم، فإنه خص الانتفاع به المؤمنين دون غيرهم، ولم يذكر التبعيض في الشفاء به مثل العسل.

هذا ما ظهر لي من النظر في ذكر لفظ الشفاء في القرآن الكريم، ولو تدبر الإنسان أكثر لظهرت له كثيرا من المعاني واللمحات واللطائف من كتاب الله عزوجل، وكما يقال القرآن مثل اللبن كلما مخضته أخرجت منه زبدة.

وأخيرا – فما كان من صواب في هذا البحث فمن الله عزوجل وما كان من خطأ فمن نفسي والشيطان، والله ورسوله بريئان منه . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الهوامـــــــــــش :

1- ابن فارس (329 - 395 هـ = 941 - 1004 م) أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي ، أبو الحسين: من أئمة اللغة والأدب. قرأ عليه البديع الهمذاني والصاحب ابن عباد وغيرهما من أعيان البيان. أصله من قزوين، وأقام مدة في همذان، ثم انتقل إلى الري فتوفي فيها، وإليها نسبته كتابه : معجم مقاييس اللغة المحقق : عبد السلام محمد هارون الناشر: دار الفكر عام النشر:1399هـ - 1979م.

2- معجم مقاييس اللغة : ابن فارس ج6، ص169، 170.

3- الراغب الأصفهاني (502 هـ 1108 م) الحسين بن محمد بن المفضل، أبو القاسم الأصفهاني (أو الأصبهاني) المعروف بالراغب: أديب، من الحكماء العلماء. من أهل (أصبهان) سكن بغداد، واشتهر، حتى كان يقرن بالإمام الغزالي. كتابه: المفردات في غريب القرآن المحقق: صفوان عدنان الداودي الناشر: دار القلم، الدار الشامية - دمشق بيروت الطبعة: الأولى - 1412 هـ.

4- ابن منظـــور (630 - 711 هـ = 1232 - 1311 م) محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال لدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الأفريقى، صاحب (لسان العرب): الإمام اللغوي الحجة. من نسل رويفع بن ثابت الأنصاري. ولد بمصر (وقيل: في طرابلس الغرب) وخدم في ديوان الإنشاء بالقاهرة، ثم ولي القضاء في طرابلس، وعاد إلى مصر فتوفى فيها، وقد ترك بخطه نحو خمسمائة مجلد، وعمي في آخر عمره. قال ابن حجر: كان مغرى باختصار كتب الأدب المطولة ، وقال الصفدي : لا أعرف في كتب الأدب شيئا إلا وقد اختصره. كتابه : لسان العرب، الناشر: دار صادر – بيروت، الطبعة: الثالثة - 1414 هـ، عدد الأجزاء: 15.

[5]- ابن منظور، لسان العرب، 14، 436.

6- لمؤلفها الشيخ محمود بن عبد الرحيم صافي: من أعلام مدينة (حمص) السورية، وهو مؤلف أول كتاب كامل مفصّل في إعراب القرآن وصرفه وبيانه؛ ويعرف باسم: (الجدول في إعراب القرآن، وصرفه، وبيانه). بعد أن أنفق فيه خلاصة عمره، ويُذكر أنه سلّم الكتاب للناشر، ثم توفى بعدها بساعة واحدة ، وطُبع الكتاب بعد وفاته، وكانت سنة 1985 م.

7- لمؤلفها محيي الدين درويش (1326 - 1403هـ = 1908 - 1982 م). ولد في مدينة حمص (سورية)، وفيها توفي. عاش في سورية. تلقى علومه في مدارس حمص، حيث كانت في ذلك الوقت عبارة عن كتاتيب يتلقى فيها طلاب العلم القرآن الكريم وعلومه، ظهرت نجابته فأنهى دراسته للقرآن الكريم وهو في سن العاشرة؛ مما أهله للالتحاق بمدرسة دار المعلمين العليا في دمشق. عمل مدرسًا للأدب العربي في مدارس مص التجهيزية بعد أن اختارته وزارة المعارف لهذا العمل في عام 1932م، وفي عام 1963 م أصدر مجلة « الخمائل الأدبية» التي كانت متنفس الأدباء والشعراء داخل القطر السوري وخارجه، وكان قد رأس تحرير عدد من الجرائد. كان عضوًا في المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية.

8- ابن عاشور (1296 - 1393 هـ = 1879 - 1973 م) محمد الطاهر بن عاشور: رئيس المفتين المالكيين بتونس وشيخ جامع الزيتونة وفروعه بتونس. مولده ووفاته ودراسته بها. عين (عام 1932) شيخا للإسلام مالكيا. وهو من أعضاء المجمعين العربيين في دمشق والقاهرة. كتاب: التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد» الناشر: الدار التونسية للنشر – تونس سنة النشر: 1984 هـ. عدد الأجزاء: 30.

9- ابن عاشور. التحرير والتنوير. ج19-ص90.

10- المصدر السابق. ج15-ص17.

11- المصدر السابق. ج11-ص78.

12- المصدر السابق. ج25-ص228.

13- المصدر السابق. ج14-ص94.

14- المصدر السابق. ج10-ص97.

15- الطبري، أبو جعفر (224-310هـ، 839 - 923م).أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن غالب. إمام المفسرين. ولد بطبرستان، وبدأ في طلب العلم في السادسة عشرة من عمره، ثم رحل إلى بغداد واستقر فيها، بعد أن زار عدة بلدان. توفي الطبري في بغداد. الكتاب: جامع البيان في تأويل القرآن. المحقق: أحمد محمد

شاكر. الناشر: مؤسسة الرسالة. الطبعة: الأولى، 1420 هـ - 2000 م.عدد الأجزاء: .24
16- الإمام الطبري. جامع البيان في تفسير آي القرآن ج19 –ص.363
17- سيد قطب (1324 - 1385هـ، 1906 - 1966م)) .سيد قطب إبراهيم حسين الشاربي، أديب ومفكر إسلامي مصري، ولد بقرية موشة بمحافظة أسيوط في صعيد مصر، وبها تلقى تعليمه الأوّلي وحفظ القرآن الكريم، ثم التحق بمدرسة المعلمين الأولية (عبدالعزيز) بالقاهرة، ونال شهادتها والتحق بدار العلوم وتخرج عام 1352هـ، 1933م. عمل بوزارة المعارف بوظائف تربوية وإدارية، وابتعثته الوزارة إلى أمريكا لمدة عامين وعاد عام 1370هـ، 1950م. انضم إلى حزب الوفد المصري لسنوات وتركه على أثر خلاف عام 1361هـ، 1942م. وفي عام 1370هـ، 1950م انضمّ إلى جماعة الإخوان المسلمين، وحوكم بتهمة التآمر على نظام الحكم وصدر الحكم بإعدامه ، وأعدم عام 1385هـ، 1966م.
الكتاب: في ظلال القرآن. الناشر: دار الشروق - بيروت- القاهرة. الطبعة: السابعة عشر - 1412 هـ
18- سيد قطب: ظلال القرآن. ج5_ص2603.
19- الرَّازي ، فخر الدين (544 - 606هـ، 1150 - 1210م).أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين. ولد في الري بطبرستان، أخذ العلم عن كبار علماء عصره، ومنهم والده، حتى برع في علوم شتى واشتهر، فتوافد عليه الطلاب من كل مكان. كان الرازي عالمًا في التفسير وعلم الكلام والفلك والفلسفة وعلم الأصول وفي غيرها. ترك مؤلفات كثيرة تدل على غزارة علمه وسعة اطلاعه أبرزها تفسيره الكبير المعروف بمفاتيح الغيب، وهو تفسير جامعٌ لمسائل كثيرة في التفسير وغيره من العلوم التي تبدو دخيلة على القرآن الكريم، وقد غلب على تفسيره المذهب العقلي الذي كان يتبعه المعتزلة في التفسير، فحوى تفسيره كل غريب وغريبة كما قال ابن خلكان. اختُلف في سبب وفاته، وقيل مات مسمومًا. الكتاب: مفاتيح الغيب = التفسير الكبير. الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت. الطبعة: الثالثة.1420 هـ.
20- الرازي. مفاتيح الغيب التفسير الكبير. ج24.ص 512.513.
21- الإمام الطبري. جامع البيان في تأويل آي القرآن ج17 –ص.539.538.
22- سيد قطب. في ظلال القرآن. ج4- ص 2248.
23- الرازي. مفاتيح الغيب التفسير الكبير. ج-21، ص389.
24- الإمام الطبري. جامع البيان في تأويل آي القرآن ج15 –ص.104.105.
25- سيد قطب. في ظلال القرآن. ج3- ص 1803.
25- الرازي. مفاتيح الغيب التفسير الكبير. ج-17، ص268.
27- الإمام الطبري. جامع البيان في تأويل آي القرآن ج21-ص483.
28- سيد قطب. في ظلال القرآن. ج5-ص3128..
29- الرازي. مفاتيح الغيب التفسير الكبير. ج27_ص570.
30- الإمام الطبري. جامع البيان في تأويل آي القرآن. ج17-ص250-249.
31- سيد قطب. في ظلال القرآن. ج5- ص2182، 2181.
32- الرازي. مفاتيح الغيب التفسير الكبير. ج 20، ص239، 238.
33- الإمام الطبري. جامع البيان في تأويل آي القرآن. ج14 –ص160.
34- سيد قطب. في ظلال القرآن. ج3- ص1612.
35- الرازي. مفاتيح الغيب التفسير الكبير. ج16-ص5، 6.
36- تخريج.